

وليم بتلر ياتس

WILLIAM BUTLER YEATS

الفنان الذي أوجع لأمته أرباباً

١٨٦٥ - ١٩٣٩

للأستاذ عبد الكريم الناصري

(سنة ما نشر في العدد السابق)

— ❦ —



والحب عند ياتس صوفي، فذ في صوفيته وتقافته^(١). « هو
 لب أبيض يحترق فيه كل ماله سلة بالأرض وبالتراب »

هو حب « شلي »، « آربلي »، حب مثالي للجمال مثالي
 ولكن أين هذا المثل الأعلى من الجمال ؟ إن دونه الكلال
 والملال، والهزم والشيخوخة، والصدى الذي لا يلب، والقلق الذي
 ماله من حد :

« خرجت إلى غابة البندق ، لأن نارا كانت في رأسي ،
 فانتعلت غصناً وقشرته ، ومكنت بندقية من صنارة ، ووصلت

(١) أعني « بالصوفي » : « أن فيه شدة أو نشوة روحية عظيمة » .
 فارجو ألا ينصرف الذهن إلى التصوف بالمعنى الاسلامي . « هل أن « صوفية
 ياتس » صوفية مستعذبة لا يمكن تقريبها إلى النفس إلا بترجمة شعرية
 دقيقة لشعره .

الصنارة بخيط ، وساعة أن كان فراش العُث في جو السماء، وكانت
 النجوم تبرز رفاقة خفاقة وكأنيما الفراش ، أثقلت اليه لره
 في الجدول فصدت سمكة فضية صغيرة ، ثم وضعتها على الأرض
 ومضيت أبخ النار لتلهب ، ولكن شيئاً حف على الأرض ،
 وإنساناً هتف باسمي ، وإذا بها أمست فتاة تكاد في الضوء الخافت
 المرتعش لا تبين ، وفي شعرها زهرة تفاح ، وقد هتفت باسمي وفرت
 واختفت في الغشاء الرقاف بأمنواء اللب

ألا إني وإن كان أهرمني التطواف الهائم خلال النجاد وخلال
 الوهاد ، لو أجد يوماً ملازماً ومأواها ، فقبل ثمرها ومتناول يدها ،
 ثم سائر وإياها بين الشب الرقط الطويل ، ثم مقتطف حتى آخر
 الزمان ، تفاح القمر الفضي ... وتفاح الشمس الذهبي »
 ومُحزنة الحب في هذه الدنيا أنه لا يدوم . إن ياتس ليعترف
 بهذه الحقيقة ، ولكنه في بعض الأحيان يأتي أن يعترف :

« أيتها الجبين الشاحب ! أيتها اليد الساكنة ! أيتها الشر
 المظلم ... لقد كان لي صديقة جميلة ؛ ولقد خيل إلي أن اليأس
 القديم سينتهي بالحب في النهاية ، ولكنها نظرت ذات يوم
 في قلبي فرأت صورتك هناك فابتعدت باكياً »

على أنه يؤمن بأن القلب إذا كان عاجزاً عن صدّ عاديات
 الزمن ، عاجزاً عن الاحتفاظ بالحب والروح حيصة الجسد ، فإنه
 يعود قوياً نشيطاً ويسترجع الحب القديم جديداً كما كان أول
 ما بدأ ، بعد انطلاق الروح ...

« أيتها القلب الرئيب البالي »
 « أخرج سالماً من شبك الضلال والصواب »
 « إضحك — أيتها القلب — ثانية في الغسق الأشهب »
 « تنهد — أيتها القلب — ثانية بين ندى الصباح »
 « أما والقلب والروح رهينا الجسد »
 « فإن الحب أقل رفقاً من الغسق الأشهب »
 « وإن الأمل أقل نفاة من ندى الصباح »
 والشاعر من أجل ذلك يتمنى لحبيته الموت . فلو أنها ماتت
 لعادت إليه وقد صفحت عنه ، لأنها ماتت ، وعند ذلك يضم جلالها
 إلى صدره .

ثم إن حبيبة هذا الشاعر أجل مخلوق في الوجود . بل هي

المرأة الجميلة الوحيدة . ثم إن الناس جميعاً ، بل الكون جميعه ، يحبها
حباً عبادة وتقديس :

« ما عليك إلا أن ترفى يداً من شحوب اللآلى ، وتجمعي
ما تفرق من غداً شمرك ثم تنهدي ... فإذا قلوب الرجال جميعاً
تأجج وتخفق ؛ ثم لا يحيا الزبدُ على الرمال الممتدة ، ولا النجوم
وهي تصعد في السماء ينزل منها الندى إلا لتبر قدمك العابرة »
وإذا كان هذا هو شأنها ، فأى هدية إذاً تليق بها ؟ !

« لو كنت أملك أنسجة السماء الموشاة

« تطارزها أشعة من ذهب وفضة »

« ما بين أزرق ومعم وأسود »

« من ليل أو نهار أو شبه ليل أو نهار »

« إذن لنشرت تلك الأنسجة تحت قدميك »

« ولكني فقيرٌ ما أملك إلا أحلامي »

« ولقد نشرت أحلامي تحت قدميك »

« نخفي الرطبة لأنك تطئين أحلامي »

أحلام الشاعر ! أجل أحلامه ...

« مازوت الأغصان لأن ربح الشتاء هبت عليها »

« قد زوت الأغصان لأن قصصت عليها أحلامي »

وكما أن الحب عند يائلس مقدس لا يعلوه شيء ، فكذلك اللهو

البريء — الرقص والموسيقى — مقدس لا ينبغي أن يُنزل منزلة

التحنت والصلاة ، لأنه أعلى منهما وأقدس :

حين أعزف على ربابي في (دوني)

يرقص القوم مثل موجة البحر^(١)

(١) لعل التعبير ينقصه شيء من « الروح العرية » ، ولكنني
— ولا أدري على التحقيق السبب — أوتره على غيره ؛ وقد كان بإمكان
أن أقول : « يرقص القوم كما ترقص موجة » ، فأكب الوزن أيضاً .
بهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ المغاد ترجم هذه القطعة ، فكانت ترجمته
لهذين البيتين هكذا :

« إذا عزفت على الربابة في دوني »

« رقص الناس كما ترقص الأمواج »

إن « الجو الشعري » الذي تحمله كلمة « الناس » يختلف عن الجو
الشعري الذي تحمله كلمة « Folk » التي يمكن التعبير عنها — تميراً فنياً
جيداً — بكلمة « القوم » . ثم إن قوله : « كما ترقص الأمواج » يوحي
بشيء من « الفضامة » ويدل على « الاضطراب » في حركات الراقصين
فالترجمة بأفراد الأمواج هي الصحيحة ، وهو ما أراد الشاعر بقوله :

« Like a Wave of the sea »

وابن عمي راهب في كفارنت

وأخي راهب في مُهاريوى .

لقد فقت أخى وابن عمي ،

فهما يقرءان في كتب الصلاة

وأنا أقرأ في كتاب الأغاني ،

كتاب شريته من سوق الريف .

وحين نتقدم في آخر الزمان

من (بطرس) وهو جالس على عرشه الفخم

سوف يبسم للأرواح الثلاثة القديمة ،

ولكن يدعوني أنا أولاً إلى الدخول

لأن الخبيرين هم المرحون ،

إلا من عثر بهم الحظ النكود ...

والمرحون يحبون الرباب ،

والمرحون يحبون الرقص .

وحين يلحني القوم هناك

سوف يقرأ كضوء نحوى صائحين :

« ها هو ذا منشدٌ دوني ! »

ثم يرقصون مثل موجة البحر

— ٤ —

وراء كل أدب عظيم فلسفة . والستر يئس يلخص فلسفته

فنياً يلي :

« إنني أعتقد بتعاطي فلسفة ما تواضعنا على تسميته بالسحر

أو ما ينبغي لي أن أسميه استحضار الأرواح — وإن كنت

لا أدري ماهيته — أو بالقدرة على خلق أوهايم سحرية ،

أو بالكشافات Visions الحق في أعماق النفس إذ العين مغمضة ؛

وإنني لأعتقد بثلاثة مبادئ :

١ — أن حدود النفس Mind في تحول دائم ، وأن الأنفس

الكثيرة تستطيع أن تتصل أو يسيل بعضها إلى بعض إن صح

هذا التعبير ، لتخلق أو تظهر نفساً واحدة ، طاقة واحدة

٢ — أن حدود الذاكرة هي أيضاً في تحول دائم ، وأن

ذاكرتنا جزء من ذاكرة واحدة كبرى هي ذاكرة الطبيعة نفسها

٣ - أن هذه النفس الكبرى وهذه الذاكرة الكبرى يمكن استحضارها بواسطة الرموز

إن هذه «الذاكرة الكبرى» هي مخزن الرموز. وما الشاعر الرمزى إلا ساحر يقوم بدور الوسيط لاستحضار هذه الرموز - هذه الأرواح - ولكنه لا يخلق منها شيئاً. وعلى ذلك فكل ما نحس من عاطفة أو نرى من رأى أو نطلب من هدف ليس لنا، «وإنما صعد إلينا من الجحيم أو هبط علينا من السماء» ولكي يستطيع الشاعر استدعاء هذه المعاني والرموز والعلاقات، يبني له أن يجعل نفسه في حالة سلبية - أن يجعلها كالأماكن الساكنة تنعكس عليه شتى الصور. قال ياتس:

«كنت ذات مرة أنظم قصيدة شديدة الرمية والتجريد فاتفق أن وقع قلبي على الأرض، فلما انحيت لالتقاطه تذكرت حادثاً من حوادث الخيالات والأحلام (Fantastic)، ولكنه لم يبد لحظتي أنه منها بل كأنه وقع لي فعلاً. فلما سألت نفسي متى حصل هذا الحادث وجدت أني إنما كنت أتذكر أحلامي في عدة ليال. ثم حاولت أن أتذكر ما فعلته في اليوم السابق، وما فعلته في الصباح، فلم أستطع، إذ كانت حياة الوعي واليقظة قد غادرتني كلها، وما استطعت ذلك إلا بعد جهد شديد، فلما تذكرتها غادرتني بدورها حياة الأحلام التي هي أقوى من حياة الوعي وأروع. فلو لم يسقط قلبي لما فطنت قط إلى أن التأمل استحالة غيبوبة»

إت آراء ياتس الجمالية تتصل بفلسفته^(١) هذه اتصالاً منطقيًا وثيقًا

فناية الفن استحداث نشوة Ecstasy في النفس الدائمة القلب مصدرها ما يمرضه الفن من حقائق الكون وعناصره الثابتة وما دامت هذه هي غايته وهذه هي وظيفته، فلا موضع فيه إذن «لعم عصره أو سياسته أو فلسفته أو أخلاقياته» لأن هذه الظواهر جميعاً في تطور مستمر، وتغير دائم

وخلق الفن إذاً أن يرتد إلى روح ماض كان الناس فيه يبدون الطبيعة، ويدنون بالوثنية، وبميشون «في عالم يستطيع

(١) من الصعب بالطبع إدراك هذه الفلسفة من شعر ياتس ولكنه شرحها شرحاً وافياً في كتابه Ideas of Good and Evil وأنا لم أطلع على هذا الكتاب، ولذلك اعتمدت على كتاب فورست F. Reid, W. B. Yeats.

كل شيء فيه أن يتبدل ويستحيل، ويسير أي شيء آخر؛ وبين الآلهة النظام الذين كانت عراطفهم في النور. المذهب، وفي الرعد وفي هواطل الرعود... وفي تلك الأزمان «التي كانت الحزمة المسكينة من الخلفاء فيها» كما يقول الشاعر «ينظر إليها على أنها كانت يوماً من الأيام... إلهة تضحك بين النجوم» هذه الحقيقة، حقيقة أن الفن لا يكون عظيماً إلا إذا اعتمد على أساطير الأقدمين من عبدة الطبيعة، وما في عالمها من خصب وغنى ومن حياة زاخرة فياضة، هذه الحقيقة أدركها «الأساتيد»^(٢) العظام جميعاً.

لقد تلخص موقف ياتس فيلسوفاً بهذه العبارة: إنه رجل يعتقد بوجود عالم الغيب^(٣)

وحين نشر ياتس لأول مرة (١٩٠٣) كتابه «فكرات عن الخير والشر» أبى بعض ناقديه ومراجعيه أن يسلّموا بأن المؤلف يمتد بالذي يقول. ولكن أن يعتقد الإنسان بما يقول أو لا يعتقد لا صلة له في الواقع، بصواب رأيه أو ضلاله. ولست أدري، مع المسترريد، لم يلق الناس هذه الأهمية الكبرى على موقف صاحب الرأي من رأيه. إن العقيدة الفنية على كل حال تتعلق قبيل كل شيء بالجمال. فأيا شيء خاطب شعور الفنان بقوة واستمال خياله بشدة، مال إلى الخروج من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة واليقين. «وحسب الشيء أن يكون على درجة من الجمال كافية ليرتد جزءاً من عقيدته، جزءاً من دينه. وهذا هو الذي عناء كيتس حين نطق بقوله المشهور: (الجمال الحق والحق الجمال)»

هذه نظرة سرية في «و. ب. ياتس»: عمله وقته وفلسفته، أرجو أن أكون استطعت فيها أن أعطي القارئ فكرة حسنة عنه، وهو الأديب المعتمد الشخصية، الضبابي المعاني. وأرجو أن يتسع لي الوقت لأترجم لقراء الرسالة بعض آثاره الشعرية والمرحبة^(٤). وهنا أحب أن أعلم القارئ جيداً أن «ياتس» - بالرغم من كل هذه «الفراية» الظاهرية في أدبه - لم يصنع أكثر من أنه عبّر بإخلاص عن «عبقورية أرنلدا»

عبد الكريم الناصري

«بتداد»

(١) Masters. (٢) The invisible world.

(٣) لقد بدأت فعلاً بترجمة مسرحيته الشهيرة: The Shadowy Waters وهي على قصرها أشد مسرحيات تشيلا لروح أدبه.